الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٣ —

الديانة المصرية — التأليه فى العصور التاريخية

أثرت أقاصيص المعارك التى اشتعل أوارها بين المصريين فى عصور ما قبل التاريخ فى نفوس أبنائهم المصريين المدنيين تأثيراً دفعهم إلى تحوير هذه الأقاصيص الاجتماعية إلى أساطير دينية فزعموا أن « أوزيريس » — وهو إله النبات والخصوبة وبالجملة إله النيل — قد استعان بأخته وزوجته « إيزيس » إلهة الحكمة والتشريع والسحر ورمز الوفاء والإخلاص، وبوزيره « توت » إله العلم والتدبير وبعض الآلهة الآخرين على تكوين مملكة إلهية عظيمة فى مصر. وكان لهذا الإله أخ وهو « سيت » إله الشر والقحط والاجداب فحقد عليه من أجل هذا الجلال الباهر الممثل فى مملكته العظيمة الصافية، ولأنه لا يستطيع مجابهته وجها لوجه رهبة منه وفرقاً أمامه، فقد غدر به إذ احتال عليه بحيلة شيطانية حتى أدخله فى تابوت كان قد صنعه خصيصاً لهذه الخديعة بحجة أنه يود أن يعرف سعة هذا التابوت، ثم أقفله عليه وقذف به فى النيل فحمله التيار إلى المصب وسلمه إلى البحر الأبيض فحمله هذا البحر من المصب إلى « بيبلوس ». وفى أثناء ذلك افتقدته زوجته الوفية فلم تجده، فأدركت ما حدث له، فصممت على أن تفتش عنه حتى تعيده إلى الحياة وإلا لحقت به، وظلت تجهد نفسها فى البحث عنه حتى عثرت عليه وأعادته إلى الدلتا وقبل أن تتمكن من فتح التابوت فاجأها « سيت » وتغلب عليها بقوته ثم مزق جسم أخيه أشلاء عددها اثنان وسبعون شلوا، ألقى بكل شلو منها فى مقاطعة من مقاطعات مصر، وكان عددها إذ ذاك يساوى عدد هذه الأشلاء، فلم يفت ذلك فى شجاعة إيزيس ولم يضعضع من عزيمتها، بل ثابرت على جمع هذه الأشلاء المتناثرة حتى استكملتها ووضعت كل واحد منها فى مكانه الطبيعى، ثم تلت عليه بعض ما تعرفه من الرقى والتعاويذ السحرية، فعاد إلى الحياة، ولكنها حياة لا تشبه الحياة الأولى، فلم يلبث على الأرض إلا بقدر ما أنسل « هوروس » ثم غادرها واستبدلها بمملكة الأموات العظيمة حيث أصبحت مهمته محاسبة أهل الدنيا ووزن أعمالهم واصدار الأمر لهم أو عليهم بالنعيم أو بالجحيم

وقد استخلف على مملكة الدنيا من بعده ابنه « هوروس »، ولكن « سيت » عاد الى مشاكسة هذا الإله الشاب من ناحية القانون فأعلن أنه ليس ابن « أوزيريس »، لأن « أوزيريس » قد مات منذ عهد طويل، ولأنه من غير الممكن أن ينسل فى هذه الفترة الوجيزة التى عاد فيها إلى الحياة على الأرض. واذاً فليس للعرش الإلهى وارث شرعى إلا هو. وقد رفع بهذه الدعوى قضية أمام محكمة الآلهة فهبت « إيزيس » تدافع عن شرفها، و « هوروس » يثبت بنوته من « أوزيريس »، ثم استشهدت الزوجة المتهمة والابن المجحود بالإله اللبق الفصيح « توت »، فشهد بشرف الوالدة وشرعية الولد فحكمت المحكمة بالعرش المقدس لذلك الإله الشاب

ومما يلفت النظر فى هذه الأسطورة الشيقة هو أن « إيزيس » أثناء طيرانها للبحث عن أشلاء زوجها بكت حزنا عليه فسقطت من عينها دمعة فوق النيل فزاد لساعته، وكان ذلك فى شهر بوونة، فظل النيل يزيد فى هذا الشهر من كل عام إلى اليوم. ومن الغريب أن يوم بدء هذه الزيادة يسمى فى أرياف مصر الى الآن بـ « يوم النقطة »، أى نقطة الدمع التى نزلت من عين « إيزيس ». فانظر كيف أن هذه الثمانية آلاف سنة لم تستطع أن تمحو هذه الأسطورة من صحائف الوجود ؟!

روت بعض الأساطير المصرية الأخرى قصة « أوزيريس » و « هوروس »، على نحو يخالف ذلك، ولكن هذه الرواية هى أصح الروايات أو بالحرى هى أكثر الروايات تنسيقا على نظام الحقائق

ومهما يكن من شيء، فإن أهم الملاحظات العظمية القيمة فى هذه الأسطورة هو أن روح القانون والأنظمة الشرعية كانت سائدة فى مصر سيادة تامة حتى فى عهود ماقبل التاريخ، ولولا ذلك لما طلب « سيت » عزل « هوروس » عن العرش بحجة أن بنوته من « أوزيريس » لم تثبت، ولأن موته سابق على مولد هـذا الإله الشاب بزمن طويل . ولولا سيادة هذه الروح القانونية أيضا لما اضطرت « إيزيس » إلى الاستشهاد بـ « توت » على براءتها وشرعية ابنها وأحقيته فى العرش .

ويجمع على هذه الملاحظة كل العلماء الباحثين ويعدونها برهان رقى الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية وإن كانوا يختلفون فى موضوع القضية الواردة فى الأسطورة فيذهب البعض إلى تأييـد الرأى الذى ذكرناه آنفا، وهو أن الغاية من القضية كانت إثبات بنوة « هوروس » من « أوزيريس » بوساطة زواجه من أخته « إيزيس » ويرجعون زواج الإخوة بأخواتهم عند قدماء المصريين إلى هـذه الأسطورة التى يقول البعض : إن « إيزيس » قد اذعتها لتبرر بها موقفها بعد أن ولدت «هوروس» من ناحية ، ولتمكن ابنها من الصعود إلى العرش بوسيلة شرعية من ناحية أخرى .

ويؤكد البعض الآخر من الباحثين أن القضية التى أقامتها « إيزيس » أمام محكمة الآلهة لم تكن لإثبات بنوة « هوروس » من « أوزيريس » وإنما قصدت بها إثبات حق ابنها «هوروس» فى العرش بحجة أنه ابنها هى ، وهى أخت « أوزيريس » الإله الراحل ، لأن احترام المصريين القدماء للمرأة كان يجعل الوراثة عن الخال أمرا محققا ؛ ولكن الذى لا شك فيه هو أن هذه الأسطورة على وجهيها تشهد بالشوط البعيد الذى كانت مصر قد قطعته فى المدنية حتى فى عصر ما قبل تكوين المملكة الأولى .

ظل ذلك النزاع الذى احتدم لهيبه بين « هوروس » وعمه أو خاله « سيت » إله الشر والغدر رمزا لتلك الحروب العديدة التى كانت تقع من حين إلى آخر بين رؤساء مقاطعات الوجهين القبلى والبحرى زمنا طويلا تطورت بعده إلى فكرة أجرأ من الرمز ، وهى أن كلا من الرئيسين المتحاربين أصبح يمثل أحد ذينك الإلهين المتنازعين ، وما زال هذا شأنهم حتى هب ذلك الفرعون العظيم : « مينيس » أو « مينا الأول » فكان أكثر جرأة وأعظم صراحة ، فأعلن فى غير مواربة أن الإلهين كليهما قد حلا فى جسده ، وأن جسمه يشتمل على الجوهر الأسامى أو روح القدس للإلهين جميعا ، وأنهما لهذا قد استخلفاه على ذلك العرش السامى الذى طالما كان موضع نزاع بينهما ، وأنه حين يضع فوق رأسه تاج الوجهين: القبلى والبحرى ويضمهما تحت إمرته فى شيء عظيم من الحزم لا يزيد على كونه منفذا فعليا لأمر الإلهين .

وقد تم له ما أراد ، إذ أصبح إلها حيا جامعا بين القوتين اللتين ظلتا مفترقتين إلى عهده . ومنذ هذا العصر أطلق على « مينا » وأعقابه اسم الاله أو مليك القطرين أو اسم : « هوروس » و « سيت » أو مصدر الخير والشر ، والنور والظلمة ، والخصوبة والجدب ، وأصبحت زوجته تدعى بالملكة التى تحظى فى كل ليلة بـ « هوروس » و « سيت » ولكن « سيت كان فى الأناشيد والأغانى يظل كامنا فى أغلب الأحايين ولا يبرز على مسرح الأساطير المصرية إلا فى حالات السخط والغضب ، أما فى الظروف العادية فلا ترى فى الأناشيد إلا فرعون ممثلا لهوروس ، مشيدا بنعمه ، شاكرا لآلائه ، متحدثا على لسانه بعظمة مصر وعرشها عنده ، كما جاء فى هذه الأنشودة الموجهة إلى مصر : « تحية إليك يا مخلوقة « هوروس » التى زينها بذراعيه مجتمعتين والتى لم يسمح لها بأن تخضع لسكان المغرب ولا لسكان المشرق ولا لسكان الجنوب ولا لسكان الشمال ولا لسكان الوسط المركزى ، وإنما له هو وحده فحسب ، أنت لا تخضعين إلا لهوروس الذى خلقك وأسسك ثم سواك وزينك ، وأنت تحملين إليه كل ما فيك من خيرات حاضرة ومستقبلة وتقدمين إليه كل ما يشتهيه قلبه (١) .

« يتبع » محمد غلاب

(١) راجع كتاب الكسندر مورية « من البطون إلى الأمبراطوريات » صفحتى ٢١٤ - ٢١٥